﴿أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ٤٠﴾

[النّور: 40]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ضربُ مَثَلٍ آخَر للكُفّار يُجلّي حالَهم، ويُبرزُ البَاعثَ على مصيرهم إلى تلك الحالِ

لمّا مَثَّلتِ الآيةُ السّابقة أعمالَ الكفّار التي كانوا يعتمدون عليها ويفتخرون بها في كلّ وادٍ ونادٍ لحُسن ظاهرها وخيريّتها - بسرابٍ يحسبه الظّمآن ماءً، فلم يُغْنِ عنهم شيئًا منَ الحسابِ والعقابِ؛ جاءت هذه الآيةُ لتمثيلِ أعمالِهم القبيحةِ - التي ليس فيها شائبةُ خيريّة - بالظُّلمات المُتراكم بعضُها فوقَ بعض، كما قال تعالى: ﴿أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ﴾ الآية.

ومنها: لمّا بيَّن اللّهُ تعالى بالمثالِ السّابقِ أنَّ الكافرينَ لم يَصِلوا إلى شيءٍ غيرِ التَّعَبِ المُثمِرِ للعَطَبِ، وكان هذا لا يفعَلُه بنَفْسِه عاقِلٌ؛ ضرَب مثالًا آخَرَ بيَّن الحاملَ لهم على الوقوعِ في ذلك، وهو السَّيرُ بغيرِ دليلٍ، الموقِعُ في خَبطِ العَشواءِ كالماشي في الظَّلامِ[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿كَظُلُمَٰتٖ﴾: (ظلم) أصلٌ يدلُّ على خِلافِ الضّياءِ والنّورِ، ومنه: الظُّلْمَةُ، والجمعُ ظُلُماتٌ[2]، والظَّلامُ اسْمٌ لذَلِك، ولا يُجمع، يَجْري مَجرى المصدر، كَما لا تُجْمَع نظائرُه، نحو السَّواد والبَياض، ويُعبَّر بالظُّلمات عنِ الجهل والشِّرك والفِسق، كما يُعبّر بالنّور عن أضدادها، قال اللّه تعالى: ﴿يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 285، 286.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ظلم).

[البقرة: 257][1]، وظُلُماتُ البَحْرِ: شدائِدُه[2]، ولَيْلَةٌ ظَلماءُ، ويَوْمٌ مُظْلِمٌ: شديدُ الشَّرِّ[3]، والمُرادُ بالظُّلُماتِ في الآية: الظُّلْمَةُ الشَّديدَةُ، والجَمعُ مُستعملٌ في لازِمِ الكَثْرَةِ وهو الشِّدَّةُ[4].

2) ﴿لُّجِّيٍّ﴾: (لجّ) أَصلٌ صحيحٌ يدلُّ على تَردُّدِ الشَّيءِ بعضِه على بعضٍ، وترديدُ الشَّيءِ، من ذلكَ اللَّجاجُ، يُقالُ: لَجَّ يَلِجُّ ويَلَجُّ، وقد لَجِجْتُ على فعِلْتُ، لَجَجًا ولَجاجًا، ومنَ البابِ: لُجُّ البحرِ؛ وهو قاموسُهُ، وكذلك لُجَّتُهُ؛ لأنَّهُ يتردَّدُ بعضُهُ على بعضٍ[5]، واللُّجَّةُ: الجماعةُ الكثيرةُ، كلُجَّةِ البحرِ، وهي اللُّجُّ، ولُجُّ الوادي: جانِبُهُ، ولُجُّ البحرِ: عُرْضُهُ، ولُجُّ البَحْرِ أيضًا: الماءُ الكثيرُ الَّذي لا يُرَى طرفاهُ، ولُجَّةُ اللّيلِ: تَرَدُّد ظلامِه[6]، والتَجَّ الأَمرُ: إذا عَظُمَ واخْتَلَطَ[7]، وعلى ما سبق فالمُراد باللُّجّيّ في الآية: البحرُ العميقُ الكثيرُ الماءِ[8].

3) ﴿يَغْشَىٰهُ﴾: (غشى) أصلٌ يَدُلُّ على تَغْطِيَةِ شَيءٍ بِشَيءٍ، يُقالُ: غَشَّيْتُ الشَّيءَ أُغَشّيهِ[9]، والغِشاءُ: الغِطاءُ، وغَشَّيْت الشَّيءَ تَغْشِيَةً، إذا غَطَّيْتَه[10]، وتَغَشَّى ثيابَه واستغشاها: تَغَطَّى بها كي لا يَرى ولا يَسْمع: ﴿وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ﴾ [نوح: 7][11]، والغِشْيانُ – بالكَسْرِ – الإتيانُ، يُقالُ: غَشيَهُ إذا أَتاهُ[12]، والغَشْيُ والغَشَيانُ: الإحاطَةُ مِنْ كُلِّ جانِبٍ، قال تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ﴾ [لقمان: 32][13]، والمُرادُ بـ﴿يَغْشَىٰهُ﴾: يُغطّيه ويَسْتُرُه ويَعْلوه موجٌ عظيمٌ[14].

4) ﴿مَوْجٌ﴾: (موج) أصلٌ واحدٌ يدلُّ على اضطرابٍ في الشَّيءِ، وماجَ النّاسُ يموجونَ،

(1) الرّاغب، المُفردات: (ظلم).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (ظلم).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (ظلم).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 255.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لج).
(6) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المُفردات، وابن منظور، لسان العرب: (لجج).
(7) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (لجج).
(8) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 6/ 402، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 134.
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غشى).
(10) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (غشو، غشا).
(11) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عشو).
(12) المُطرّزيّ، المُغرب: (غشي).
(13) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/ 64.
(14) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 134.

إذا اضْطَرَبوا، وماجَ أمرُهم ومَرِجَ: اضطربَ[1]، والمَوْجُ في البَحر: ما يعلو من غَوارب الماء[2]، وتَموَّج: اضطرَبَت أَمواجُه، وكلُّ شيءٍ اضطربَ فقد ماج[3]؛ وعليه فالمَوجُ في الآية: ما يَرتَفِعُ منَ الماءِ على سطحِه عندَ اضطرابه[4].

5) ﴿سَحَابٌ﴾: (سحب) أَصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على جَرِّ شَيْءٍ مَبْسوطٍ ومَدِّهِ، تَقولُ: سَحَبْتُ ذَيْلي بِالأَرْضِ سَحْبًا، وسُمّي السَّحابُ سَحابًا تَشْبيهًا لَهُ بِذَلِكَ، كَأَنَّهُ يَنْسَحِبُ في الهواءِ انسحابًا[5]، وهو اسمُ جَمعٍ لسحابةٍ؛ فلذلك جاز إجراؤُهُ على اعتبارِ التَّذكيرِ؛ نَظرًا لتَجرُّدِ لفظِهِ عن علامةِ التَّأنيثِ، وجازَ اعتبارُ التَّأنيثِ فيهِ؛ نظرًا لكونه في معنى الجَمعِ[6]، والسَّحابُ: الغيمُ سواءٌ كان فيه ماءٌ أو لم يكن، ولذلك قيل: سحابٌ جَهامٌ، والجَهام: السّحابُ الذي فرَغ ماؤُه[7]، وقد يُذْكَر ويُرادُ به الظِّلُ والظُّلْمَة على طريق التَّشبيه، وهذا هو المُراد بالآية[8].

6) ﴿لَمْ يَكَدْ﴾: (كيد) أصلٌ يَدُلُّ على مُعالَجَةٍ لِشَيْءٍ بِشِدَّةٍ، قالَ أهلُ اللُّغَةِ: الكَيْدُ: المُعالَجَةُ، وقالوا: وكُلُّ شَيْءٍ تُعالِجُهُ فأَنْتَ تَكيدُهُ[9]، هذا هو الأَصْلُ في الباب، ثُمَّ يُسَمّونَ المَكْرَ كَيْدًا، قال اللّه تعالَى: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا﴾ [الطّور: 42][10]، ومن العرب مَن يُدْخِلُ (كادَ) و(يَكادُ) في اليَقين، وهوَ بِمَنْزِلَة الظّنِّ، أَصْلُهُ: الشَّكُّ ثمَّ يُجْعَلُ يَقينًا[11]، قالَ الأخفَشُ في قَوْلِه: ﴿إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ [النّور: 40] حُمِلَ على المَعْنى، وذَلِكَ أَنَّهُ لا يَراها، وذَلِكَ أَنّكَ إذا قُلت: كاد يَفعلُ إنَّما تَعْني: قاربَ الفعلَ ولم يفعلْ[12]، وعليه؛ فالمُراد بالكيد في الآية: فِعلٌ يدُلُّ على قُرْبِ حدوثِ الخبرِ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (موج).
(2) الخليل، العين، والرّاغب، المُفردات: (موج).
(3) ابن دُريد، جمهرة اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (موج).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/ 74.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سحب).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8 - ب/ 182.
(7) ابن الأثير، النّهاية: (جهم).
(8) الرّاغب، المُفردات، والسّمين الحلبيّ، عُمدة الحُفّاظ: (سحب).
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (كيد).
(10) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن الأثير، النّهاية، وابن منظور، لسان العرب: (كيد).
(11) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والفيوميّ، المصباح المنير، وابن منظور، لسان العرب: (كيد).
(12) ابن دريد، جمهرة اللّغة، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (كيد).

7) ﴿نُّورٍ﴾: (نور) أَصلٌ صحيحٌ يدُلُّ على إضاءةٍ واضطرابٍ وقِلَّةِ ثباتٍ، ومِنْهُ النّورُ والنّارُ؛ سُمّيا بذلكَ مِنْ طريقةِ الإضاءةِ، ولأَنَّ ذلكَ يكونُ مُضطربًا سريعَ الحَرَكةِ[1]، والنّورُ: الشُّعاعُ، وهو أَعَمُّ مِنَ الضّياءِ، يَصْدُقُ على الشُّعاعِ الضَّعيفِ والشُّعاعِ القويِّ، فضياءُ الشَّمسِ نورٌ، ونورُ القَمَرِ ليس بضياءٍ، هذا هو الأَصلُ في إطلاقِ هذه الأسماءِ، ولكنْ يَكْثُرُ في كلامِ العَرَبِ إطلاقُ بعضِ هذهِ الكلماتِ في موضعِ بعضٍ آخَرَ بحيثُ يَعْسُرُ انضباطُه[2]، وذلك ضربان: دنيويٌّ، وأُخرويٌّ، فالدُّنيويُّ ضربان؛ الأوّل: معقول بعين البصيرة، وهو ما انتشر منَ الأمور الإلَهيَّة، كنور العَقل ونور القرآن، والآخَر: محسوسٌ بعين البَصر، وهو ما انتشر منَ الأجسام النَّيِّرة؛ كالقَمَرَيْن والنُّجوم والنَّيِّرات[3]، والنّورُ في الآية استعارةٌ للوضوحِ والحَقِّ، فإنَّ الحَقَّ يُشَبَّهُ بالنّورِ، كما يُشَبَّهُ الباطِلُ بالظُّلْمَةِ[4].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

مَن لم يَهْدِهِ اللهُ فلا هاديَ له

يذكرُ اللّهُ تعالى في هذه الآيةِ المَثَلَ الثّاني للكافرين وما هم فيه مِن ضَلالٍ وجَهلٍ فيقولُ سبحانه: أو مَثَلُ أعمالِ الكافرينَ في ضَلالِهم وجَهلِهم الذي لا يتبيَّنونَ فيه الهُدى والحَقَّ، كمِثلِ ظُلُماتٍ في بَحْرٍ عَميقٍ، يَعلوه موجٌ، مِن فوقِ ذلك الموجِ مَوجٌ آخَرُ مِن فوقِه سَحابٌ، ظُلُماتٌ مُتراكِمٌ بَعضُها فوقَ بَعضٍ إذا أخرجَ مَن كان في هذه الظُّلُماتِ يَدَه ليَنظُرَ إليها لم يقارِبْ رُؤيتَها مِن شِدَّةِ الظَّلامِ، فلا يراها مُطلقًا، ومَن لم يَهْدِه اللّهُ للإيمانِ وينَوِّرْ قَلبَه بنورِ الإسلامِ، فلا هِدايةَ له مِن أيِّ أحَدٍ كائنًا مَن كان[5].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نور).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/ 94.
(3) الرّاغب، المُفردات، والسّمين الحلبيّ، عُمدة الحُفّاظ: (نور).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/ 363.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 329، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 71، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 182.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ العطف بـ ﴿أَوْ﴾، وإيثارُها على غيرها من حروف العطف:

تَـنـوّعُ أحـوالِ أعمالِ الكافرين الـدّاعـيَـة إلى تشبيهها مَـرَّةً بالسَّراب، ومَرَّةً بـالـظُّـلـمـاتِ الكثيفةِ

جاء العطف بـ ﴿أَوْ﴾ في قوله: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ﴾ دون غيرها؛ لأنّه قُصِد منه التَّنويع، ويُفهم منَ السّياق في المَثَلَين أنَّ التَّنويع ليس لتَنوّع الأعمال؛ وإنَّما هو لتَنوّع الأحوال الدّاعيَة إلى تشبيهها مَرَّةً بالسَّرابِ الكاذبِ، ومَرَّةً أُخرى بالظُّلمات الكثيفة، حيثُ أَعلَمَ اللّهُ سبحانه أنَّ أعمال الكفّار إن مُثِّلَتْ بما يوجَد، فمَثَلُها كمَثَل السَّراب، وإن مُثِّلَتْ بما يُرَى؛ فهي كهذه الظُّلمات التي وصَف[1]، فالكُفّار باعتبار أعمالِهم ينقسمون إلى قسمَيْن؛ قسمٌ ضُرِبَ لهم المَثَلُ بالسَّراب، وقسم ضُرِبَ لهم المَثَل بالظُّلمات، وتقدير الكلام: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ﴾ ...، أو هي ﴿كَظُلُمَٰتٍ﴾، ويُستفادُ من هذا في بيان المُمَثّل له: أنَّ المُمَثَّل له في الأصل هو أعمالُ الكفّار، مع شموله لبيان حالِ عُمَّالِها، وأثرِها عليهم.

وقد أوثِرَ التّعبيرُ بحرف ﴿أَوْ﴾ دونَ غيرها من حروف العطف؛ لأنّها تَرِد في اللّغة لعِدَّة معانٍ؛ من أهمها: التَّخييرُ، والإباحَة، والشَّكّ، والإبهام، والتّقسيم ...، وغيرها من المعاني[2]، وهو ما حمل المُفسِّرين على الاختلاف في بيان المُراد بـ ﴿أَوْ﴾ في الآية بين الإباحة[3] والتّنويع[4] والتّقسيم[5]، أو تجويزِ تفسيرِها بجميع مَعانيها على توجيهٍ لِكُلٍّ منها[6]، وما ذكروه من دلالتها على الإباحة أو التَّخيير أو التَّنويع أو التَّقسيم فإنَّ ذلك يُستفاد منَ السّياق لا مِن ﴿أَوْ﴾ نفسِها.

---

(1) الرِّسعنيّ، رموز الكنوز: 5/ 264، والشَّوكاني، فتح القدير: 4/ 46.

(2) ابن عقيل، شرح ابن عقيل على ألفيَّة ابن مالك: 3/ 232.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 329، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 283، والشَّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 38.

(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 181، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 398.

(5) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 4/ 109، والمَظهريّ، التَّفسير المَظهري: 6/ 543.

(6) الهمذانيّ، الفريد في إعراب القرآن المجيد: 1/ 235، 3/ 604.

أثَرُ معنى ﴿أَوْ﴾ على التّشبيه:

معنى التّنويع

يظهر أثرُ التّنويعِ لـ﴿أَوْ﴾ في تمثيل أعمال الكفّار؛ باعتبار ما مُثِّلَتْ به أعمالُهم التي كانوا يرجون الخيرَ منها لو استقامت قلوبُهم وحَسُنَت نيّاتُهم بما ذُكِرَ أوّلًا من تمثيل أعمالهم بالسَّرابِ مع زيادة حساب وعقاب، ثمّ من تمثيل أعمالِهم القبيحةِ التي لا خير فيها - لا في ذاتها ولا في نيّاتها - بِالظُّلمات المُتراكمةِ بعضِها فوقَ بعض[1]، وهذا من باب التّنويع.

معنى التّخيير

من المعاني التي تَرِد لها ﴿أَوْ﴾ في هذا التّشبيه: التَّخيير، ويكون المعنى: تمثيلُ حالِ الذين كفروا في أعمالهم التي يعملونها وهم غير مؤمنين بحالِ مَن ركِبَ البحرَ يَرجو بلوغَ الغاية فإذا هو في ظُلماتٍ لا يهتدي معها طريقًا؛ وعلى هذا يكون وجه الشَّبه هو ما حَفَّ بهم دون حصول مبتغاهم، فإنَّ أعمالَهم لكونها لاغيةً لا منفعةَ لها كالسَّراب، ولكونها خاليةً عن نور الحَقّ فهي كالظُّلمات المُتراكمةِ من لجِّ البحر والأمواج والسَّحاب[2]، ومن هنا يظهر سِرّ اختيار ﴿أَوْ﴾ في عطف التَّشبيهات؛ لتدُلَّ على تخيير السّامع أن يُشَبِّهَ بما قبلَها أو بما بعدَها[3].

معنى التّقسيمِ

وأمّا معنى التَّقسيم في ﴿أَوْ﴾ فباعتبار وقتيْن؛ فإنَّها كالظُّلمات في الدُّنيا وكالسَّراب في الآخرة[4]، وعند أهل التَّحقيق من علماء اللُّغة أنّها موضوعةٌ لأحد الشَّيئَيْن المَذكوريْن معها، فدَلَّ وجودُها عاطفةً بينَ التَّمثيليْن على أنَّ أعمالَ الذين كفروا كسرابٍ، أو كظلماتٍ، فإنَّها لا تخلو من أحد المَثَلَيْن.

بلاغةُ التّشبيهِ التّمثيليّ في الآيةِ بحسبِ دلالاتِ عطفِ الآيةِ:

قوله تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ﴾ هذا هو التَّشبيهُ الثّاني على أنّ ﴿أَوْ﴾

الكفّارُ يتقلّبون في الظّلماتِ الحالكةِ لا يَنفكّون منها

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 181.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 109، وأبو حيّان، البحر المُحيط: 8/ 53.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 254، 255.
(4) أبو حيّان، البحر المُحيط: 8/ 53.

لتنويع أعمالِهم؛ فالتّشبيهُ تمثيلٌ لأعمال الذين كفروا التي كانوا يظنّون أنَّهم يتقرَّبون بها إلى الله بحال ظُلُماتِ ليلٍ غشيَتْ ماخِرًا في بحر شديدِ الموج قدِ اقتحم ذلك البحر ليصلَ إلى غاية مطلوبه، فحالُهم في أعمالِهم تُشبِهُ حالَ سابحٍ في ظُلماتِ ليلٍ في بحر عميق يغشاه موجٌ يركبُ بعضُه بعضًا؛ لشِدّة تعاقُبِه، وإنّما يكون ذلك عند اشتداد الرّياح، حتّى لا يكاد يرى يدَه التي هي أقربُ شيءٍ إليه وأوضحُه في رؤيته، فكيف يرجو النّجاة؟

وإن كان الكلامُ جاريًا على التَّخيير في التَّشبيه مع اختلاف وجه الشَّبه كان المعنى: تمثيلُ حالِ الذين كفروا في أعمالهم التي يعملونها وهم غير مؤمنين بحالِ مَن ركب البحر يرجو بلوغ غايةٍ، فإذا هو في ظُلماتٍ لا يهتدي معها طريقًا؛ فوجهُ الشَّبَه هو ما حَفَّ بأعمالهم من ضلال الكُفْرِ الحائل دونَ حصولِ مُبتغاهم[1].

الغرضُ مِنَ التّشبيهِ ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ﴾:

تـقـريـرٌ لـحـال المُشَبّه في ذِهْن الـسّـامـع مع تقبيحه

يظهر الغرضُ من هذا التَّشبيه التّمثيليّ الذي جُعِلَت فيه الصّورةُ المُنتزعةُ من حال الكائنِ في ظُلمات بَحْرٍ لُجّيٍّ، حُجِبَ عنه النّورُ بأكثرَ من حِجاب مع ما يُحيطُ به من أحوال البحر المُضطرب الكثير المخاوف، وجُعِلَ مثالًا تُقاسُ به أعمالُ فريقٍ منَ الكفّار، ويُعطَوْن حُكْمَه، ويُعْتَبر به في معرفة حقيقةِ حالهم، وفي هذا تقريرٌ لحال المُشَبّه في ذِهْن السّامع مع تقبيحه، وذلك ببيانُ حال المُشَبّه به (أعمال الكافرين في الدّنيا).

دلالةُ التّشبيهِ المُرَكّبِ:

تـشـبـيـهُ حـالـةٍ معقولةٍ بحالةٍ محسوسةٍ

النّاظر في هذا التّشبيه الوارد في قوله تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ﴾ الآية يجد أنّه تشبيهٌ مُرَكَّبٌ؛ وذلك أنَّ كُلًّا منَ المُمَثَّل

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 255.

به والمُمَثَّل له عبارةٌ عن صورةٍ مُرَكَّبةٍ من جُملة أفرادٍ تُعطي في مجموعها الوصفَ المُعتَبرَ والحُكمَ المُشترَكَ بينَ المُشَبَّه والمُشَبَّه به، حيثُ شَبّهت أعمالَ صنفٍ منَ الكفّار في ظُلمتها وظُلمة قلوبِ عُمّالها وحَيْرتهم، وما ينتابهم منِ اضطرابٍ وخوفٍ بالظُّلمة الحاصلة حولَ شخصٍ كائنٍ في قاع بحارٍ عميقةٍ تضطرب حولَه الأمواجُ، وتنتابه المخاوفُ بسبب استحكام الظُّلمة من حوله في ذلك المكان المُفزِع، حتَّى إنَّه إذا أخرج يده لم يُقارِب رؤيتَها، حيثُ حُجِبَ عنه الضَّوءُ بحُجُبٍ ثلاثة[1]، وهذا التَّمثيل من قبيل تشبيه حالةٍ معقولةٍ بحالةٍ محسوسةٍ، كما يُقالُ: شاهدتُ سوادَ الكُفرِ في وجهِ فلانٍ[2].

سِرُّ التّعبيرِ بالكافِ، وأثرها في التّشبيهِ:

استقلالُ هذا التَّشبيهِ عن سابقِهِ

آثَرَ القرآنُ الكريم التّعبيرَ بالكافِ في قوله: ﴿كَظُلُمَٰتٍ﴾؛ لأنّها أداة تشبيه، ومحلُّها في الإعراب: الرَّفعُ؛ لكونها معطوفةً على الكاف في ﴿كَسَرَابٍ﴾، وهذه الأخيرة خبر المُبتدأ الذي هو ﴿أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾[3]، وتقدير الكلام: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابٍ﴾ ...، أو هي ﴿كَظُلُمَٰتٍ﴾[4]، فيكون مجموع الكاف ومدخولِها معطوفًا على مجموعِ ﴿كَسَرَابٍ﴾، وإنَّما اختير هكذا ولم يجئ (أو ظلمات) عطفًا على (سراب)؛ للتَّنبيه على استقلال كُلٍّ منَ التَّشبيهيْن[5].

موقعُ كُلٍّ منَ التَّمثيلَيْن منَ الآخر:

التَّشبيهُ الأوَّلُ لما يوجَدُ، والثّاني لما يُرَى

قوله تعالى: ﴿أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ﴾ يُصوّر هذا التَّمثيلُ أعمالَ الذين كفروا في الدُّنيا من حيثُ خُلوّها عن نور الحَقّ، وبعدُها عنِ الصّراطِ المستقيمِ بصورةٍ ظُلماتٍ متراكبةٍ من لُجَج البحر والأمواجِ

(1) الجربوع، الأمثال القرآنيّة القياسيّة المضروبة للإيمان بالله: 2/ 572.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 254، 255.
(3) الهمذانيّ، الفريد في إعراب القرآن المجيد: 3/ 604.
(4) مكّيّ، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 8/ 5123.
(5) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 398.

والسَّحاب بعد أن صوِّرت في التَّمثيل الأوَّل بصورة السَّراب الخادع – وذلك يكون في الآخرة – ملاءمةً لسياق الآية.

دلالةُ تعدّدِ ضربِ المَثل للكافرين وأعمالِهم:

كـلُّ مَـثـلٍ مـنَ المَثَـلين يُضيف معاني لا توجد في الآخر

النّاظر في الآيتيْن الكريمتيْن بَدءًا من قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ﴾ الآية؛ يجد تعدُّدَ ضربِ المَثل؛ وذلك لما يُضيفُه كلُّ مثلٍ منهما من معانٍ لا توجد في الآخر، ويظهر ذلك من خلال ذِكْر الفَرْق بَيْنَ التَّمثيلَيْن، وذلك من وجوه؛ **الأوّل**: أنَّ المُراد منَ المَثَلَين مختلفٌ؛ ذلك أنَّك إنْ شبَّهتَ أعمالَهم لما يوجد، فهو كالسَّراب بالقيعة، وإن شبَّهتَ أعمالَهم لما يُرى، فهو كالظّلمات في البحر اللُّجيِّ[1]، **الثّاني**: أنّ المَثل الأوَّل لِما تؤول إليه أعمالُهم في الآخرة، والثّاني فيما هم عليه في حال الدُّنيا، وهذا المعنى ظاهرٌ في تشبيه النَّظم الكريم لأعمالِهم أوَّلًا في فواتِ نفْعِها وحُضورِ ضرَرِها بسَرابٍ لم يجِدْه مَن خَدَعَه مِن بعيدٍ شيئًا، ولم يَكْفِه خَيبةً وكَمَدًا أنْ لم يجِدْ شيئًا كغيرِه مِنَ السَّرابِ حتَّى وجَدَ اللّه له بالمِرصاد، فجازاه بالعذاب الأليم؛ وشبَّهها ثانيًا في ظُلْمتِها وسَوادِها لكونِها باطلةً، وفي خُلوِّها عن نورِ الحقِّ بظُلُماتٍ مُتراكمةٍ مِن لُجِّ البحرِ والأمواجِ والسَّحابِ[2]، وعلى هذا يكون التَّمثيل الأوَّل: لأعمالهم الحسنة التي يظنّون نفعَها، والثّاني: لأعمالهم القبيحة، **والوجه الثّالث**: أنّ المَثَل الأوّل راجعٌ إلى الفئة الكافرة التي اعتقدت أحقيَّة ما هم عليه من أعمال الخير في نجاتهم، والمَثل الثّاني راجعٌ إلى أولئك الكفرة الحيارى الذين ضلّوا سواءَ السّبيل، ولم يَهتدوا إلى نور اللّه[3].

(1) السَّمعانيّ، تفسير السَّمعانيّ: 3/ 100.
(2) الزَّمخشري، الكشّاف: 3/ 244، وأبو حيّان، البحر المُحيط: 8/ 54.
(3) الجبالي، شفاء الصّدور بتفسير سورة النّور، ص: 240.

بلاغةُ حذفِ المُضافِ:

دلالـةُ المحذوفِ عـلى الـعـمـلِ وصاحبه

حُذِف المضافُ في قوله تعالى: ﴿أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ﴾، وتقدير الكلام: أو كذي ظلماتٍ، ودلَّ على هذا المضاف قولُه تعالى: ﴿إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۚ﴾، فالكنايةُ تعودُ إلى المضاف المحذوف، وقيل: على حذف مُضافيْن، تقديره: (أو كأعمال ذي ظلمات) فقدّر (ذي) ليصِحَّ عودُ الضَّمير إليه في قوله تعالى: ﴿إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ﴾، وقدّر (أعمال) ليَصِحّ تشبيهُ أعمالِ الكفّار بأعمال صاحب الظُّلمة، إذ لا معنى لتشبيه العمل بصاحب الظُّلمة[1]؛ وجمهورُ المُفسِّرين على أنَّ الآيةَ السّابقة في ذِكْرِ أعمالِ الكفّارِ، والثّانيةَ في ذِكْرِ كُفْرِهم، ونسَقَ الكُفرَ على أعمالِهم؛ لأنَّ الكُفرَ أيضًا مِن أعمالِهم، وقد قال تعالى: ﴿يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۗ﴾ [البقرة: 257]؛ أي: مِنَ الكُفرِ إلى الإيمانِ، فيكونُ التَّمثيلُ قد وقَعَ لأعمالِهم بكُفرِ الكافرِ، وأعمالُهم منها كُفْرُهم؛ فيكونُ قد شبَّهَ أعمالَهم بالظُّلماتِ[2].

نُكْتَةُ جمعِ لفظ ﴿كَظُلُمَٰتٖ﴾ في الموضعيْن:

الـدّلالـة على شِـدَّة الظُّـلمةِ وتعدُّدِ أنواعها

جاء التّعبيرُ القرآنيّ بجمع ﴿كَظُلُمَٰتٖ﴾ دون إفرادها (ظلمة)، في قوله تعالى: ﴿أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ﴾ ... ﴿ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ﴾، مع أنّ المُراد بالظُّلمة في الآية الكريمة الظُّلمةُ الحِسّيَّةُ الكائنةُ في هذا المكان الموصوف، والظُّلمات: هي أساس التَّمثيل، وهي جمع ظُلْمَة؛ لأنّ المُراد بها ظُلمةُ الجهل، وظُلمةُ الكُفر، وظُلمة الظُّلم واتّباع الهوى، وظُلمة الشَّكِّ والرَّيب، وظُلمةُ الإعراض عنِ الحقِّ الذي بعثَ اللّهُ تعالى به رُسُلَهُ صلواتُ اللّه وسلامُه عليهم، والنّورِ الذي أنزلَه معهم ليُخرجوا به النّاسَ منَ الظُّلمات إلى النّور؛ فإنَّ المُعْرِضَ عمّا بعثَ اللّهُ تعالى به محمَّدًا ﷺ منَ الهدى ودينِ الحَقِّ يتقلَّب في خمس

(1) الشّربينيّ، السّراج المنير: 2/ 695.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 283، وأبو حيّان، البحر المُحيط: 8/ 53.

ظُلُماتٍ؛ فقولُه ظُلمةٌ، وعملُه ظُلمةٌ، ومَدْخلُهُ ظُلمةٌ، ومَخْرجُه ظُلمةٌ، ومصيرُه إلى الظُّلمة، وقلبُه مُظْلِمٌ، ووجهُهُ مُظْلِمٌ، وكلامُه مُظْلِمٌ، وحالُهُ مُظْلِمٌ[1]، وممّا يُؤكّد ذلك أنّ الجَمع في قولِه: ﴿كَظُلُمَٰتٍ﴾ مُستعمَلٌ في لازمِ الكثرةِ، والشِّدَّةُ؛ وهو كِنايةٌ؛ لأنَّ شِدَّةَ الظُّلمةِ يحصُلُ مِن تظاهُرِ عِدَّةِ ظُلماتٍ تراكم بعضها فوق بعضٍ[2].

دلالةُ تنكير لفظ ﴿ظُلُمَٰتٌ﴾:

تـهـويـلُ شـأنِ الـظُّـلـمـات، وتَعظيمُ خَطَرِها

لمّا كان الأمرُ مَهولًا؛ أشار القرآن الكريم إلى هوله وتصويره بتنكير لفظ ﴿ظُلُمَٰتٌ﴾؛ أيْ: منَ البحر والمَوجَيْنِ والسَّحاب[3]، وهذه الكلمةُ مُجملةٌ، وأُتبِعَت بتفصيلها إلى ثلاث ظُلماتٍ وهي الواردة في قوله سبحانه: ﴿يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾، وقد تحصَّل من كلام المُفسِّرين الإشارةُ إلى ثلاث ظلماتٍ، هي أصول كُلِّ الظُّلمات؛ الأولى: ظُلْمَةُ الجهل، الثّانية: ظُلمةُ الكُفر والضَّلال، الثّالثة: ظُلمةُ الختم على قلبه وسمعِه وبَصرِه[4].

دلالةُ التّعبير بالظّرفيَّة في قوله: ﴿فِى بَحْرٍ﴾:

الظُّلماتُ كائنةٌ في مكانٍ ما منَ البحر اللُّجّيِّ

﴿فِى﴾ من قوله تعالى: ﴿فِى بَحْرٍ﴾ حرفُ جَرٍّ، وهي هُنا للظَّرفيَّة المكانيَّة، وهي مُتعلِّقة بالظُّلمات؛ إذْ تدلُّ على أنَّ الظُّلماتِ كائنةٌ في مكانٍ ما منَ البحر اللُّجّيِّ[5]، وفي التّعبير بالظّرفيّة إشارةٌ إلى أنّ الظُّلماتِ مظروفةٌ في البحر اللّجيِّ، ففي كلِّ جوانبه ظلامٌ، وهذا ما أثبتَهُ العِلْمُ الحديثُ منَ الظّلام الدّامس في عُمق البحر، لذلك كان التّعبير بـ ﴿فِى﴾ دونَ غيرِها من حروف الجَرّ، وأيضًا لإخراج سطحِ البحر؛ فليس محلًّا لهذه الظُّلْمَة.

(1) ابن القيّم، اجتماع الجيوش الإسلاميَّة: 2/ 57، والقاسميّ، محاسن التَّأويل: 7/ 395.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 255.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 287.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 329، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 65، والجزائريّ، أيسر التَّفاسير: 3/ 575.
(5) الجربوع، الأمثال القرآنيَّة القياسيَّة: 2/ 579.

سِرُّ التّعبيرِ بالبحرِ دونَ النّهرِ، ودلالةُ تنكيرِه:

تقويةُ العمومِ في السَّعةِ والوصفِ المأخوذِ من دلالةِ اللَّفظِ

جاء التّعبيرُ القرآنيُّ بلفظ ﴿بَحْرٍ﴾ مُنكَّرًا دونَ لفظِ النّهر؛ لأنّ البحر يُطلَق على كُلّ مكانٍ واسعٍ جامعٍ للماءِ الكثيرِ[1]، ويُطلَق على البحر الصَّغير والكبير، كما دلَّ عليه قولُه سبحانه: ﴿وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ [البقرة: 164]، ومعلوم أنَّ الفُلك تجري في البحار الصَّغيرة وفي المُحيطات الكبيرة، وقولُه تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ﴾ [الأعراف: 138]، ومعلوم أنَّ البحر الذي فرقَهُ اللّه لبني إسرائيل من البحار الصَّغيرة، ويُطلق البحرُ أيضًا على الماء المالح والعذب؛ لظاهر قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ [فاطر: 12] ونحوِها، وعلى هذا فلفظُ (البحر) عامٌّ، يُطلَق على المحيطات العظيمة، والبحارِ المالحة منها والعَذْبة؛ بخِلافِ لفظِ النَّهرِ، وأمّا التّنكيرُ في لفظِ ﴿بَحْرٍ﴾ فيدلُّ على الشُّمولِ وعلى تقويةِ العمومِ في السَّعةِ.

دلالةُ وصفِ البحرِ باللُّجّيّ:

التّناسبُ بينَ الصّفةِ والموصوفِ

دلّ وصفُ البحرِ باللُّجّيّ على التّناسب بينَ الصّفة والموصوف؛ فلعُموم سعَة دلالة لفظ البحر ناسبَ وصفُه بأنَّه لُجّيٌّ؛ ليكتسبَ معنًى وبُعْدًا مهمًّا في إبراز الصّورة المرسومة في المَثَل[2]، ونُسِبَ البَحْرُ إلَى اللُّجَّة وصْفًا لَهُ بِأَنَّهُ عَميقٌ كَثيرُ الماء[3]، وبذلك يكونُ أشَدَّ ظُلمةً، فهو عميقٌ مُمتلئٌ لا يُسْبَرُ غورُه، ولا يُدْرَكُ قَعْرُه[4].

نُكْتَةُ وصفِ الظّلماتِ بأنّها ﴿فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ﴾:

التّهويلُ والتّخويفُ من صورةِ الظّلماتِ المُفزِعةِ في مكانٍ مُخيفٍ

وُصِفَتِ الظُّلماتُ بأنّها ﴿فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ﴾؛ لما يحملُه هذا اللّفظُ من معنى التّردُّد والاضطراب؛ فلُجَّةُ البحرِ هي تَردُّد أمواجِه، قال

(1) الرّاغب، المُفردات: (بحر).
(2) الجربوع، الأمثال القرآنيّة القياسيّة: 2/ 580.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 329.
(4) الثّعلبيّ، الكشف والبيان: 7/ 110.

تعالى: ﴿قِيلَ لَهَا ٱدۡخُلِي ٱلصَّرۡحَۖ فَلَمَّا رَأَتۡهُ حَسِبَتۡهُ لُجَّةٗ﴾ [النّمل: 44]، والجمعُ: لُجَجٌ، تقول العرب: التَجَّ البَحرُ؛ أيْ: تلاطمت أمواجُه، والتجَّ الأمرُ: إذا عَظُمَ واختلطَ، واللُّجَّةُ: معظم الماء، وهو ذو لُجٍّ، إشارةٌ إلى أنَّه عميق لا يُدْرَكُ له قرارٌ؛ لأنَّ اللُّجَّ مُعظمُ الماء[1].

وتَدور تفاسير أهل العلم لهذا اللَّفظ على معنيَيْن؛ **الأوّلُ**: التّردُّدُ والاضطراب النّاتجُ عن اختلاط الأمواجِ وهيجانها، ويُؤيِّد هذا المعنى ما بعدَه من قوله: ﴿يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ﴾، قال الرّاغبُ مُبيِّنًا هذا المعنى: "ومنه لَجَّة الصَّوتِ - بفتح اللّام - أيْ: تَرَدُّدُه، ولُجَّة البحر - بالضَّمّ - أيْ: تَرَدُّد أمواجِه"[2]، ويُستفاد من هذا الوصفِ أنَّ المَكان المُصَوَّر للمُشَبَّه به مكانٌ مَخوفٌ مُفْزِعٌ موْحِشٌ، والبحرُ أخوفُ ما يكون إذا توالت أمواجُه، فإذا انضمّ إلى ذلك وجودُ السّحاب من فوقه زادَ الخوفُ[3]، و**الثّاني**: لُجّيّ: العميق كثيرُ الماءِ منسوبٌ إلى اللّجّ؛ وهو معظم ماء البحر، يُقال: لُجّ الماءِ ولُجَّتُه؛ أيْ: معظمه[4]، ويُؤَيِّد هذا المعنى - وهو دلالةُ وصفِ البحر بأنَّه لُجّيٌّ على عُمقه - ما ثبتَ في عِلْم البِحار مِن أنَّ الأمواج الباطنيَّة التي تكون تحتَ سطحِ الماء، المُعَبَّرَ عنها بقوله: ﴿يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ﴾، لا تكون إلّا في البحار العميقة[5]، ويُستَفادُ من هذا الوصفِ أنَّ مكانَ التَّشبيهِ مكانٌ مُظلِمٌ، إذْ هذه طبيعةُ قاعِ البحارِ العميقة، وذلك أنَّ الأمواجَ الباطنيَّة لا تكون إلّا في عُمق البحارِ العظيمة، ومكانُ التَّشبيهِ كائنٌ تحتَها؛ ويكون مجموعُ المُستَفادِ مِن قوله: ﴿فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ﴾ أنَّ المُشَبَّهَ به كائنٌ في مكانٍ ما في قاع بحرٍ عظيمٍ عميقٍ مُظلمٍ مُضطربِ الأمواجِ مُخيفٍ مُفْزِعٍ.

سِرُّ التّعبير بالفعل ﴿يَغۡشَىٰهُ﴾:

آثَرَ القرآنُ الكريم التّعبيرَ بالغشيان دون التّغطيَة في قوله: ﴿يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ﴾ باعتبار أنّه صفةٌ أُخرى للبحر؛ أيْ: يستره ويُغطّيه[6]، و"غشى: غَشيَهُ غِشاوَةً وغِشاءً: أتاه إتيانُ ما قد

(1) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبيديّ، تاج العروس: (لجج)، وابن الأثير، النِّهاية: 4/ 233، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 283.

(2) الرّاغب، المُفردات: (لجج).

(3) الشَّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 39.

(4) ابن جرير، جامع البيان: 9/ 335، والهمذانيّ، الفريد في إعراب القرآن المجيد: 3/ 604.

(5) محمَّد حسن هيتو، المعجزة القرآنيّة، ص: 195.

(6) حقّي، روح البيان: 6/ 162.

غَشيَهُ؛ أيْ: ستره، والغِشاوَةُ: ما يُغَطّى بهِ الشَّيءُ"[1]؛ فالمعنى: يغشى ذلك البحر؛ أيْ: يُغطّي بعضُه بعضًا؛ بمعنى: أن تجيءَ موجةٌ تتبَعُها أُخرى، فهو مُتلاطِمٌ لا يَسْكُن[2].

بيانُ صفةِ التَّغطيةِ الحاصلةِ في البحرِ

دلالةُ الجملةِ الفعليّةِ ﴿يَغْشَىٰهُ﴾، وكون فعلِها مُضارعًا:

إفادةُ الاستمرارِ التَّجدُّديِّ لغشيانِ الموجِ

جاء التّعبيرُ القرآنيُّ في صفةِ الغشيانِ بالجملة الفعليّة ﴿يَغْشَىٰهُ﴾ مع أنّ الصِّفةَ الأولى للبحر ﴿لُّجِّيٍّ﴾، ومع ذلك عدلَ النّظمُ الكريمُ في الصِّفة الثّانية إلى الفعليَّة دونَ الأولى؛ لأنّ المُراد بالثّانية الاستمرارُ التَّجدُّديّ، وأمّا كونُه لُجّيًّا فدائِمٌ، وأُخِّرت الثّانيةُ لطول ذيلِها، أو لتَوقُّفِها على الأولى[3]، وممّا يُؤكّد معنى الفعليّةِ مجيئُها بصفةِ المضارعِ التي تدلُّ على تصويرِ حالةِ المَوج المُتتابعةِ والمُستمرّة، ويُلْحَظُ ذلك مِن صورةِ الأمواجِ المُتلاحقةِ التي يَعلو بعضُها فوقَ بعضٍ بصورةٍ رقيقةٍ دونَ انقطاعٍ أو انفصالٍ.

سِرُّ التّعبيرِ بالضَّميرِ في ﴿يَغْشَىٰهُ﴾ دونَ الظّاهرِ:

الإشارةُ إلى المكانِ الواقعِ فيه المُشَبَّهُ به صاحبُ الظُّلماتِ في قاعِ البحرِ

آثَرَ القرآنُ الكريمُ التّعبيرَ بالضَّميرِ في ﴿يَغْشَىٰهُ﴾ دون الظّاهرِ؛ لتَعدُّدِ المُراد به؛ فمنهم مَن قال: إنّه لصاحب الظُّلمات أو للبحر[4]؛ ويَحتمِل أن يكون للمكان الذي فيه المُشَبَّهُ به المدلولُ عليه بقوله: ﴿فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ﴾؛ أيْ: في مكانٍ ما منَ البحرِ اللُّجّيّ كما تقدَّم، ولكنْ بالنّظرِ والتّدقيقِ نرى أنّ القولَ بأنّ الضَّميرَ يعودُ على البحرِ فيه نَظَرٌ؛ وذلك لأنَّ الموج داخل البحر وجزءٌ منه، والغشيان هو التَّغطية، والموج لا يُغطّي البحر؛ وإنَّما يَتَردَّدُ فيه.

والقولُ إنَّ الضَّمير لصاحب الظَّلمات جَيِّد؛ إلّا أنَّه لم يتقدَّم ما يُشير إليه في السّياق، وإن كان سيأتي بعدُ في قوله: ﴿إِذَآ

(1) الرّاغب، المُفردات: (غشي).
(2) أبو حيّان، البحر المُحيط: 8/ 53.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 401.
(4) الهمذانيّ، الفريد في إعراب القرآن المجيد: 3/ 605.

﴿أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ﴾، لذلك فالأقوى أنَّ الضَّمير يعود على المكان الذي حُدّد في قاع البحر العميق الذي هو مسرحُ المَثَل، وهو يَتَضَمَّن صاحبَ الظُّلمات إذ هو فيه؛ فتكون جملةُ: ﴿يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ﴾ صفةً للمكان الواقع فيه المُشَبَّه به صاحبُ الظُّلماتِ في قاع البحر، والسّياق يُبَيِّن المكانَ الذي يقع فيه المُشَبَّهُ به وما يعتريه من أسفل إلى أعلى؛ فالمكانُ في قاع البحر المُظْلِم ويُغطّيه ويغمرُه موجٌ من فوقه، وفوقَ ذلك الموجِ موجٌ آخر، وفوقَ البحر سحابٌ، كما يَدُلُّ السّياق على أنَّ هذه العواملَ تُسْهِمُ في حَجْب النّور عنِ الكائن في ذلك المكانِ، وتُصَوِّر شِدَّة الظُّلمة المُحيطة بالمُشَبَّه به كما سيأتي في قوله: ﴿ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ﴾، وهذه الصّورة المرسومة للمُمَثّل به تَدُلُّ على وجود موجٍ داخلَ البحر واقعٍ بينَ قاعِهِ وسطحِهِ[1].

دلالةُ التّعبيرِ بقولِهِ: ﴿مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ﴾:

دلّ التّعبيرُ بقوله: ﴿مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ﴾ على تصوير حالةِ الخوف المتتابعةِ والمُتراكمة من خوف البحر وأمواجه والسَّحابِ المُرتفعِ فوقَه، وقيل: إنَّ المعنى: يغشاه موجٌ من بعد موجٍ، فيكون الموج يَتبع بعضُه بعضًا حتَّى كأنّ بعضَه فوقَ بعضٍ، والبحرُ أخوفُ ما يكون إذا توالت أمواجُه[2]، والسّحابُ المُرتفعُ فوقَه بظلامِهِ.

تصويرٌ لحالةِ الخوفِ المجتمعةِ والمتتابعةِ

دلالةُ التّعبيرِ بالظَّرفيّةِ ﴿فَوۡقِهِۦ﴾:

دلَّ التّعبيرُ بالظّرفيّة ﴿فَوۡقِهِۦ﴾ في قوله: ﴿فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ﴾ و﴿فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ﴾ على إبراز صورة الظُّلمات المُتراكمة والمُترادفة من أمواج البحر وتتابعها؛ فالضَّمير في قوله: ﴿مِّن فَوۡقِهِۦ﴾ يعود على الموج المُتقدّمِ ذِكْرُه في قوله: ﴿يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ﴾، فقولُه: ﴿مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ﴾

الفَوقيّةُ دالّةٌ على تكاثُفِ وترادُفِ الظُّلماتِ؛ بيانًا لِشِدَّةِ الأمرِ وتعاظُمِهِ

(1) هيتو، المعجزة القرآنيّة، ص: 195.
(2) الشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 46.

صفةٌ للموج المُتَقَدِّم ذِكْرُه[1]، وهذا الموج هو الكائِنُ على سطح البحر المشاهَدُ بالعيان، وذلك أنَّ هذا المعنى هو المُتبادِر إلى الذّهن إزاءَ لفظ (الموج)، ولم يُصرَف عن ذلك بصارفٍ، كما أنَّه هو الموجُ الذي يكون السَّحابُ من فوقه، والموج الذي يكون على سطحه، وفي هذا تقريرٌ لحقيقة علميَّة، وهي: أنَّ هناك أمواجًا داخليَّةً تَكَلَّم عنها العِلْمُ الحديثُ وأثبتها، كما يُشير إلى الأمواج السَّطحيَّة التي نراها ونعرفُها، وهذا المعنى واضح من قوله تعالى: ﴿مِّن فَوْقِهِۦ﴾؛ أيْ: إنَّ الموجَ الأوَّل مِنَ الأسفل، والموجَ الثّاني يأتي من فوقه، ولم نعد بحاجةٍ إلى ارتكابِ المجازِ في قولنا: ﴿مِّن فَوْقِهِۦ﴾؛ أيْ: من بعده، وأن تتابعَ الموجِ يُظْهِره كأنَّ بعضَه يَرْكَب بعضَه الآخر، فالآيةُ واضحةٌ كُلَّ الوضوحِ، وصريحةٌ في دلالتها على هذا الذي اكتشفَهُ العِلْم الحديثُ منَ الأمواج الباطنة التي تعلوها الأمواجُ السّطحيَّة، ولا سيما أنَّ الآية قالت: ﴿فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ﴾؛ أيْ: عميقٌ، وهذا إنَّما يكون في المحيطات لا على الشَّواطئ والخُلجان[2].

دلالةُ التّعبيرِ بقولِهِ: ﴿مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ﴾:

شِـدّةُ الخـوفِ وهولُ الصّورةِ

دلّ التّعبير بقوله: ﴿مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ﴾ بعدَ فوقيّةِ الموجِ على تصوير حالةِ الخوف الشّديدة التي تعتري الإنسانَ من هذا السّحاب المُظْلِم؛ لأنّه سَتَر النّجومَ التي يهتدي بها مَن في البحر، ثُمَّ إذا أمطرت تلك السُّحبُ وهبّتِ الرّيحُ المعتادَة في الغالب عند نزول المطر، تكاثفتِ الهمومُ، وترادفتِ الغُمومُ، وبلغَ الأمرُ إلى الغاية التي ليس وراءَها غايةٌ، ولهذا قال سبحانه: ﴿ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾؛ أيْ: هي ظلماتٌ متكاثفةٌ مترادفة، دلَّ عليها ذِكْرُ فوقيَّةِ السَّحاب بعد ذِكْرِ فوقيَّةِ الموج التي تصوّر تَراكُمَ الأمواجِ الهائلة

(1) الهمذانيّ، الفريد في إعراب القرآن المجيد: 3/ 605.
(2) هيتو، المعجزة القرآنيّة، ص: 195، 196.

وتَضاعيفها حتَّى كأنَّها بلغَتِ السَّحابَ[1]؛ ففي هذه الجملةِ بيانٌ لشِدّة الأمر وتعاظمِه[2].

نُكْتَةُ تنكيرِ ﴿سَحَابٌ﴾:

قولُه تعالى: ﴿سَحَابٌ﴾؛ أيْ: سحابٌ كثيفٌ متُراكمٌ قائم[3]، فتنكيرُ لفظِ السّحاب يَدُلُّ على انتشارِ السّحابِ الكثيفِ المتراكمِ وتغطيتِه للأرجاء المُحيطةِ بصاحب المَثَل.

الدّلالةُ على الشُّمولِ والإحاطةِ في الحَجْبِ

نُكْتَةُ فصلِ جملةِ: ﴿ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ﴾ عمّا قبلها:

فُصِلت جملة: ﴿ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ﴾ عمّا قبلها؛ لأنّها جملةٌ استئنافيّةٌ، والتّقدير: (هي ظلمات)، وهذه الجملةُ فيها إجمالٌ بعدَ تفصيل؛ وذلك أنّه قال في أوّل المَثَل: ﴿أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ﴾، ثُمَّ فصَّلَها وبَيَّنَ أنَّها مكوّنةٌ من ظُلمة قاعِ البحر النّاتجةِ عن موجٍ فوقَه وموجٍ فوقَ الموجِ الأوَّل، وسحاب فوقَ الجميع، ثُمَّ أَجْمَل بقوله: ﴿ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ﴾، ثمّ فصَّل بقوله: ﴿إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ﴾.

إجمالُ ما سبق تفصيلُه بذِكْرِ كَمالِ شِدَّةِ الظُّلماتِ بسبب كثرة الحُجُبِ

سِرُّ وصفِ أمواجِ البحرِ بالظّلمةِ:

وصف القرآنُ الكريمُ أمواجَ البحر بالظّلمة في قوله: ﴿ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ﴾ مع أنّ الموجَ هو حركة ماء البحر، وماء البحر شفاف، فكيف يُسَمَّى ظُلمة؟ والجواب: أنَّ تسميةَ هذه الحُجُبِ ظلمةً إنَّما هو باعتبار أنَّها مُسبِّبَةٌ لها، والسّياق يَدُلُّ على أنَّ الظُّلْمَة لم تحدث من شيءٍ واحدٍ، وإنَّما أسهمت هذه العواملُ مُجتمعةً في تكوينها واستحكامها؛ فالسَّحابُ والموجُ الأوَّل والموجُ الثّاني كُلٌّ منها عزلَ شيئًا منَ الضَّوء؛ فأحدَثَ ظُلمةً فيما تحتَه[4]، فعُلِم مِن هذا الإجمالِ بذِكْرِ الظُّلمات المتُراكمةِ بُعْدُ مكانِ المُمَثَّل به عن مصدر

سوء مآل الكافرين، ظلمات فوق ظلمات

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 181، 182.
(2) الشَّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 46.
(3) الطَّنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 10/ 134.
(4) الجربوع، الأمثال القرآنيّة القياسيّة: 2/ 587.

الضّوء وشِدّةُ ظلمته؛ لوجود الحُجُبِ الكثيرة بينَه وبينَه، وهذه الظُّلمة ملازِمَةٌ لا تتأثّر بإشراق الشَّمس نهارًا فوقَ السَّحابِ، أو غيابِها ليلًا، فسببُها الحُجُبُ الكثيفةُ المانعةُ للضّوء والبُعْدُ السَّحيقُ؛ فهي مُتكاثِفةٌ مُتراكِمةٌ، وهذا بَيانٌ لكَمالِ شِدَّةِ الظُّلماتِ[1].

بلاغةُ توجيهِ القراءاتِ القرآنيّةِ المُتواترة:

تعدُّدُ القراءاتِ ثَراءٌ للمعنى

قرأ الجمهورُ: ﴿سَحَابٌ﴾ بالرَّفع والتَّنوين، و﴿ظُلُمَٰتٌ﴾ بالرَّفع على أنّه خبر لمبتدأ محذوف تقديرُه: هي ظلماتٌ، وقراءةُ الجمهور تبيينٌ لتلك الظُّلمات الثَّلاث في قوله: ﴿مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ﴾؛ فهذه ثلاثُ ظُلُماتٍ[2]، وقرأ ابن كثيرٍ في رواية قُنبل: ﴿سَحَابٌ﴾ بالرَّفع والتَّنوين، و﴿ظُلُمَٰتٍ﴾ بالخفض على البدلِ من ﴿كَظُلُمَٰتٍ﴾ الأولى، كأنّه قال: (أو كظُلُماتٍ بعضُها فوقَ بعض)، وقرأ البزّيّ: ﴿سَحَابُ ظُلُمَٰتٍ﴾ على إضافة السّحاب إلى الظّلمات[3]، فقد جعلَ الموجَ المتراكِمَ بمنزلةِ السَّحابِ كما يُقالُ: سَحابةُ رحمةٍ؛ فأضافَ ﴿سَحَابُ﴾ إلى ﴿ظُلُمَٰتٍ﴾؛ ليبيِّنَ في أيِّ شَيءٍ هو[4]، ووجه الإضافة أنَّ السَّحاب يرتفع وقتَ هذه الظُّلُمات، فأُضيفَ إليها لهذه المُلابسة.

دلالةُ عودِ الضَّميرِ في ﴿بَعْضُهَا﴾:

تأكيدُ ما تَقدَّم مِن أنَّ الحُجُبَ ظُلماتٌ

الضَّمير في ﴿بَعْضُهَا﴾ من قوله تعالى: ﴿ظُلُمَٰتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ يعودُ إلى الظُّلمات الثَّلاث التي سبق تفصيلُها، وهو يُفيد تأكيدَ ما تقدّم من أنَّ الحُجُبَ ظلماتٌ؛ أيْ: إنَّها تسبَّبت في حصول الظُّلمة وحَجْبِ الضَّوء، وهكذا الحال في المُمَثَّل له - كما

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 182، محمَّد سالم محيسن، المستنير في تخريج القراءات المتواترة، ص: 134.

(2) ابن خالَوَيْه، الحُجَّة، ص: 263، والسَّمين الحلبيّ، الدُّر المَصون: 8/ 415، والمَظهريّ، التَّفسير المَظهريّ: 6/ 543.

(3) ابن الجزريّ، النَّشر: 2/ 332.

(4) ابن زَنْجَلَة، حُجَّة القراءات، ص: 502، ومَكّيّ، الكشف عن وجوه القراءات: 2/ 140، والعُكْبَريّ، التِّبيان في إعراب القرآن: 2/ 973.

يدلّ عليه الاعتبارُ والقياسُ - فهو في ظُلمةٍ شديدةٍ حالكةٍ، بسببِ حُجُبٍ حَجَبت عنه نورَ الهداية، وهكذا الحالُ في المُمثّل لهم - هذا القسم منَ الكفّار - الذين قامت بهم حُجُبٌ حجبت قلوبَهم عن نور الهداية، وضُربت عليهم حُجبٌ منعت أنوارَ الهداية أن تصل إليهم جَزاءً وِفاقًا[1].

دلالةُ التَّعبير بالظَّرف ﴿فَوْقَ﴾ دونَ حرف الجرّ:

استغراقُ الجِهةِ في هذا الموضعِ

أثبتَ النَّظمُ الكريمُ حرفَ الجَرّ في جُملةِ ﴿يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ﴾، ولم يُثبته في جملة ﴿ظُلُمَٰتُۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾؛ لأنَّ المُرادَ استغراقُ الجِهةِ في هذا الموضع؛ فهي ظُلماتٌ مُتراكمةٌ يَبْعُد كُلَّ البُعدِ أن ينفذ فيها بَصَرٌ[2]؛ فأفادت أنَّ الحُجُبَ مترتبةٌ مُتعاقبة بعضُها أقربُ إلى الشَّخص الكائن في ذلك المكان المُظلم، وبعضها أقربُ إلى مصدر النّور، وقوله: ﴿بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ يقابلُ قولَه: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ [النور: 35] في مَثَل النّور المُتقدِّم في قوله: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ﴾ [النور: 35] الآية.

دلالةُ حذفِ زمنِ وقوعِ الظُّلمةِ:

ليشملَ زمنَ اللّيلِ والنّهارِ

لم يَذكُرِ السّياقُ زمنَ وقوعِ هذه الظُّلماتِ الواردةِ في المَثل القرآنيّ، أهي حاصلة باللَّيل أم النَّهار؟ مع أنّ بعضَ المُفسِّرين اعتبر أنَّ الزَّمان الذي تقع فيه الظُّلمة هو اللّيل، وأنَّه هو الأنسبُ[3] لسياق المَثَل المُصَوِّر لشدَّة الظُّلمة، إلّا أنَّ اعتبار الزَّمان نهارًا له وجهٌ مُعتَبَرٌ في المَثَل؛ حيثُ يَدُلُّ على أنَّ مصدر النّور الذي هو الشَّمس موجودٌ إلّا أنَّ صاحب الظُّلماتِ أوقع نفسَه في مكانٍ محجوبٍ عنِ النّور، وفي حالٍ أوجبت أن يُحال بينَه وبين النّور، وعلى هذا فالأنسب في المَثَل افتراضُ أنَّ الشّمس

(1) الجربوع، الأمثال القرآنيّة القياسيّة: 2/ 604.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 13/ 287.
(3) الشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 39، والهمذانيّ، الفريد في إعراب القرآن المجيد: 3/ 605.

مُشرقةٌ فوقَ السَّحاب، وذلك للاعتبارات الآتية: **أوَّلًا**: أنَّ ذلك أبلغ في إفادةِ شِدَّةِ الظُّلمة، إذ إنَّ الظُّلمة اللّازمة التي لا تتأثّر بليلٍ ولا بنهارٍ أشدُّ وأعظمُ منَ الظُّلمة الطّارئة المُتأثِّرة بالشَّمس، **ثانيًا**: أنَّ افتراض أنَّ الشَّمس مُشرقةٌ، يُفيد في الدّلالة على بُعد الواقع في ذلك المكان المُظلِم عن مصدر النّور - الشَّمس - الذي يُقابَل في المُمَثَّل له بنور العِلْم، مِمّا يُفيد في بيان أنَّ ضلالَه إنَّما هو بسبب بُعْده عن مصدر النّور، ووجودِ تلك الحُجُب، وليس انعدامَ مصدرِ النّور، **ثالثًا**: أنَّ التَّفصيل في ذِكْرِ الحُجُب، وتسميتَها (ظُلماتٍ) يدلُّ على أنَّ لها أثرًا في إحداث الظُّلمة، وذلك لا يتحقَّق إلّا بافتراض أنَّ الشّمس مشرقةٌ، حيثُ يخترق بعضَ أشعتِها السَّحابُ، أمّا في اللَّيل فإنَّ السَّحاب كافٍ في إحداث الظُّلمة، حيثُ يحجب النُّجوم، وعندها تستوي الظُّلمة فوقَ البحر وداخلَه، ولا حاجةَ لذِكْر الحُجُبِ الأخرى، ولكن يُناسب ذلك مع وجود بعض الضَّوء الذي تَسَرَّب منَ السَّحاب - والشَّمس مشرقة - إذ يبرز أثر تلك الحُجُبِ في حَجْبِ ذلك الضَّوء النّافذِ عن قاع البحر[1].

نُكْتَةُ فصلِ قوله: ﴿إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ﴾ عمّا قبلَه:

المبالغةُ في بيان شِدّة هذه الظّلمات

فُصل قولُه تعالى: ﴿إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ﴾ عمّا قبله؛ مُبالغةً في بيان شِدَّة هذه الظُّلمات، وهو منَ التّفصيل بعدَ الإجمال ببيان المُراد من وصف الظُّلمة المُتقدِّم، وهو إفادة عَدَمِ قُدرة مَنْ كان فيها على الإبصار والاهتداء إلى طريق النَّجاة[2].

الموقعُ النَّحويُّ لقوله: ﴿لَمۡ يَكَدۡ﴾، وفائدةُ التَّعبيرِ به:

المُبالغةُ في وصفِ استحكامِ الظُّلْمةِ في نفيِ مُقاربةِ الرُّؤيةِ فيها

اختلف عُلماءُ اللُّغة والتَّفسيرِ في قولِه تعالى: ﴿لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ﴾؛ هل يقتضي أنَّ هذا الرَّجل المُقدَّر في هذه الأحوال إذا أخرج يده من كُمِّه لم يرها البتّة، أو رآها بعد عُسْرٍ وشِدَّة؟ فقالت فرقة: لم

(1) الجربوع، الأمثال القرآنيّة القياسيّة: 2/ 591.
(2) الجربوع، الأمثال القرآنيّة القياسيّة: 2/ 592.

يرها البتّة؛ وذلك أنَّ (كاد) معناها: قارب؛ فكأنَّه قال: ﴿إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ﴾ لم يُقاربْ رؤيتَها، وهذا يقتضي نفيَ الرّؤية جُملةً، وقالت فرقة: بل رآها بعد عُسر وشِدّة[1]، وكاد ألّا يراها، ووجه ذلك: أنَّ (كاد) إذا صَحِبَها حرفُ النَّفي وجبَ الفعل الذي بعدَها، وإذا لم يصحبها انتفى ذلك الفعل، وخلاصة القول في المُراد بقوله تعالى: ﴿لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۖ﴾، أنّ الرّاجح في معناها: أنّه لا يراها ولا يقرُب من رؤيتها، وإذا لم يُقارب رؤيتها فهو من أن يراها أبعدُ؛ فالكائنُ في ظلمات البحر اللّجيِّ التي ما زال فيها شيءٌ من ضوءٍ، لا يرى يدَه إلّا بصعوبةٍ، لكن إذا غاص إلى الأعماق التي تغرق في الظّلام الشّديد، ومَدّ يدَه أمامَ عينيه، فإنّه لا يراها أبدًا.

وهذا التّفسير متّفقٌ مع معنى (كاد)؛ الذي يُفيد المقاربة، ومُتّفق مع دلالة الأسلوب ﴿لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۖ﴾، الدّال - كما تقدَّم - على نفي مُقاربة الرُّؤية؛ فهو مع صِحَّته أبلغُ في إفادة المعنى المُراد المتّفق مع السّياق الذي دلَّ على استحكام الظُّلمة ونتيجةِ ذلك، وهو عدمُ قدرةِ الكائن في هذا المكان على إبصار يده.

سِرُّ انتخابِ اليدِ دونَ سائرِ الأعضاءِ في الرُّؤيةِ:

كـونُ اليدِ أقرب عضوٍ لمحلِّ رؤية الإنسان

لمّا كانت العادةُ في اليد أنَّها مِن أقرب ما يراها الانسان، وأبعدُ ما يُظَنّ أنّه لا يراها؛ قال تعالى: ﴿إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۖ﴾؛ وفي هذا بيانٌ لبلوغ تلك الظُّلمة التي هي أقصى النِّهايات[2]، وللدّلالة على أنّه إذا عجز عن إبصار يده فهو عن إبصار غيرها أعجزُ، فيكون عاجزًا عجزًا تامًّا عنِ الاهتداء إلى طريق النّجاة، وعنِ الفكاك عن ذلك المكان المُظلم الموحِش المُهلِك[3].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 9/ 336.
(2) ابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 14/ 408.
(3) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 244، وأبو حيّان، البحر المُحيط: 8/ 54، والدَّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 619، 620.

دلالةُ الاعتراضِ التَّذييليّ:

مَـن يُضلل اللهُ فلا هاديَ له

قولُه تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ اعتراضٌ تذييليٌّ، جيءَ به لتقرير ما أفاده التّمثيلُ من كون أعمال الكُفّار كما فُصّل في المَثَل السّابق، وختام المَثَل بقوله سبحانه: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ فيه دلالةٌ على فعل الله ﷻ، وأنَّه لم يجعل لهم نورًا حيثُ منعَ عنهم النّورَ بالحجاب الذي ضربَه على قلوبهم وأسماعهم وأبصارهم، وهذا المعنى الذي دلَّ عليه المَثَل - وهو ختمُ الله وطَبْعُه على قلوب وأسماع الكافرين - دلّت عليه نصوصٌ كثيرةٌ.

دلالةُ التّعبيرِ بالموصول (مَن) وموقعُه منَ الجملة:

الإشـارةُ بما في حَيِّزِ الصِّلَةِ إلى عِلَّةِ الحُكمِ

إيرادُ الموصولِ في قولِه: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا﴾؛ للإشارة بما في حيِّز الصِّلَة إلى عِلَّة الحُكم، وأنَّهم مِمَّن لم يشإ الله تعالى هدايتَهم؛ أيْ: مَن لم يَشإِ الله تعالى أن يهديَه لنوره في الدُّنيا فما له هدايةٌ ما، مِن أحدٍ أصلًا[1].

دلالةُ التَّعبير بالجَعْل في قولِهِ: ﴿يَجْعَلِ﴾:

التَّـنـبـيـهُ على أنَّ الله تعالى مُـتـصَـرِّفٌ بالإعطاءِ والمَنعِ

في التَّعبير بالجَعْل تنبيهٌ على أنَّ الله تعالى مُتصَرِّفٌ بالإعطاءِ والمَنع على حَسَبِ إرادته وحِكمته وما سبَقَ مِن نِظام تَدبيره[2]، فهو إثباتٌ لفعل الله سُبحانه في إضلالهم، ومنعِه النّورَ عنهم، بما ضُرِب عليهم منَ الخَتْم والطَّبع والغِشاوة[3].

دلالةُ التَّعبيرِ بالاسمِ الجليلِ ﴿ٱللَّهُ﴾:

في التَّعبيرِ بالاسم الجليل ﴿ٱللَّهُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ﴾؛ أي: الملكُ الأعظمُ ﴿لَهُۥ نُورًا﴾ منَ الأنوار[4]؛ تدليلٌ على عَظَمة النّورِ والهداية الصّادرَيْن منَ المعبود الحقِّ.

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 182، والآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 376.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 257.
(3) الجربوع، الأمثال القرآنيّة القياسيّة: 2/ 619.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 13/ 287.

نُكْتَةُ تقديمِ شِبهِ الجملةِ ﴿لَهُۥ﴾:

في تقديم الجارِّ والمجرور ﴿لَهُۥ﴾ على ذِكْرِ النّور في قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا﴾ تشويقٌ للمُؤَخَّر - وهو النّور - الحاصلِ بتوفيق الله تعالى.

دلالةُ التّعبير بـ ﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن نُّورٍ﴾:

استغراقُ النَّفي وشمولُه لِكُلِّ جزءٍ من أجزاءِ النّورِ

جيءَ بـ ﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ ليَدلّ وجودُها على استغراق النَّفي وشموله لِكُلِّ جُزءٍ من أجزاء النّور، ولو قيل: (فَما لَهُ نّورٍ) بدون (مِن)؛ لما أفاد هذا المعنى الذي دلَّ عليه وجودُها.

بلاغةُ الطّباقِ في الجمعِ بينَ الظُّلماتِ والنّورِ:

إيضاحُ المَثَلِ المَضروبِ، وترسيخُ دلالةِ مبناه في النُّفوسِ

بين لفظيّ ﴿نُّورٍ﴾ و﴿ظُلُمَٰتٌ﴾ طباقٌ أفصحَ عن دلالة الرَّبط في الآية الكريمة، وأدَّى إلى مزيدِ إيضاحٍ للمَثل المضروب وترسيخٍ لدلالته؛ بما يُسبّبه هذا الطِّباق بينَ اللَّفظتيْن مِن شَدٍّ للانتباه، وجذبٍ للنَّفس المُتلقّية له قراءةً، وتدبُّرًا، وفي ذلك تعزيزٌ للوظيفة الإبلاغيَّة للطِّباق بالوظيفة التَّأثيريّة التي يترسَّخ من خلالها المنهجُ الفطريُّ السّليم للنَّفس البشريّة، باتّباع الهُدى والاستبشار بالنّور واتِّباعه، والنُّفرةِ من ظُلمة الكفر والعصيان ونبذها.

نُكْتَةُ جمعِ الظّلماتِ وإفرادِ النّورِ:

النّورُ واحدٌ لا يتعدّدُ؛ والظّلماتُ مُتعدِّدةٌ بتعدُّدِ الأهواءِ والضَّلالاتِ

لمّا كان طريقُ الحَقِّ واضحًا مُستقيمًا كان واحدًا، وأمّا الباطلُ فلمّا كان غامضًا مُبهمًا؛ كانت طُرقُه كثيرةً مُتشعِّبةً مُتعدّدة مختلفة، ولمّا كانت الظُّلمة بمنزلةِ طريقِ الباطلِ، والنّورُ بمنزلةِ طريقِ الجنّةِ، أُفرِد النّور وجُمعتِ الظُّلمات؛ إذ إنَّ أصل النّور واحدٌ، وهو اللّهُ جلَّ في علاه، وأصلُ الظّلمات مُتعدِّد بتعدُّد الأهواءِ والضَّلالات، وتعدّد طُرُقِ الغَيِّ، فإفرادُ النّورِ لوَحْدَة الحَقّ، كما أنَّ جمع الظُّلمات لتَعدُّد

فنونِ الضَّلال[1]، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ الإفراد إيماءٌ إلى القِلَّة، والجمع إيماءٌ إلى الكثرة، وأنَّ أهل الحَقِّ هم القِلَّة القليلةُ في كُلِّ عصرٍ ومصرٍ.

(1) ابن القيّم، بدائع الفوائد: 1/ 120، وطريق الهجرتيْن، ص: 177، والزّركشيّ، البرهان: 4/ 12.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع والثلاثون،
سورة النور من الآية 39 إلى سورة الفُرقَان الآية 42
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السابع والثلاثون، سورة النور من الآية 39 إلى سورة الفُرقَان الآية 42
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 37 ، 812 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-79-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 37 : المجلد السابع والثلاثون، سورة النور من الآية 39 إلى سورة الفُرقَان الآية 42.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-79-2
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-8644972 بتاريخ 2024/11/26م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»